الإعجـــاز...ونظرية النظـــم لـــدى الـــجرجـــاني أو الخطـــاب من الإبلاغ إلى الخلود "

د. محمد خـــان
ق. اللغة العربية وآدابها
جامعة بسكرة

نشأ الدرس اللغوي لدى العرب في رحاب النص القرآني، ومن أجل خدمته تلاوة وفهما ، وما لبث أن توسّعت دائرة الاهتمام اللغوي، فشملت النص الأدبي عموما، والنص الشعري خصوصا. وشرع العلماء يبحثون عن جوهر المعاني، ومستوياتها الدلالية، وتعمّقوا في آي القرآن الكريم، فاختلفت الرؤى ، وتنوّعت الأفهام، و تعددت الأفكار وظهرت شيع وأحزاب، كل فريق يجد في النص القرآني مبتغاه، و كل لفيف ينتصر لرعواه .

والحقيقة أن للقرآن الكريم دلالات متنوعة، ومعـــاني واسعة - والتنوع للأثراء - وقد جاء متحديا أساطين البيان، ولما طلبوا مقارعته فشلوا، وأنّى لهم ذلك؟! بل قد "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ".[1]

وثبت تاريخيا أنهم حاولوا -جاهدين- محاكاة أسلوبه . فما قدروا - ولن يقدروا - لأنه نزل على " حد من الفصاحة تقصُر عنه قوى البشر "[2].

ومن منطلق الإيمان بالوحي السماوي حاول الجرجاني أن يتلمس طريق الإعجاز في القرآن الكريم، فأطلق على مصنفه اسم "**دلائل الإعجاز**" ، وذهب يعـــدد الوجوه التي يمكن أن يتعلّق بها الإعجاز، فافترض جدلا قائما بينه وبين خصـــومه - وربما كانت الخصومة واقعة ثقافية حينذاك- فكان يدحض الحجة

بـــأقوى مـــنها، ومـــا كـــان منه إلا أن نفى أن يكـــون الإعجاز في الألفاظ المفردة، وهي أوضاع اللغة،لأنها وجدت في الاستعمال اللغوي قبل نزوله، و لا يتصور أن بها أوصافا جديدة حدثت لها ،وهي في القرآن، وهل يسوغ التفاضل بيـــنها ؟ إنها قدر مشترك بين أبناء الأمّة الناطقين بلغة واحدة. ويعضده-دليلا- وظـــيفة اللغة في التواصل والإبلاغ " فإن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيّد مـــنها في الأفهـــــام[3] "ثم إن الألفـــاظ لا تراد لذواتها، بل تراد للدلالة على المعـــاني ، فـــإن تجلت مقاصد الناس ، فلا عبرة بالألفاظ ، لأنها وسائل ، وقد تحققت غاياتها في الإبلاغ. فما قيمتها بعدئذ ؟

كذلك لا يمكن أن يكون في الإيقاع (الحركات والسكنات)، فما تحدّاهم بأن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها في زنة كلمات القرآن، وما كان بهذه المثابة ينطبق على مثل سجع (مسيلمة)، ولا هو في الفواصل، فإنها عديلة القوافي في الشعر، ولا تعدو أن تكون مراعاة للوزن، وللإنسجـــام الصوتي[4].

وما أبعده أن يكون في الإعراب، وتمييز المنصوب من المرفوع أو من المجرور، ذلك أن " العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلّه ، وليس هو ممّا يستنبط بالفكـــر، ويستعـــان عليـــه بالروية، لأنا لسنـــا في ذكر تقويم اللسان، والتحرّز من اللحن ، وزيغ الإعراب، فنعتدّ بمثل هذا الصواب "[5]. وهـــل الإعراب مزية للمتكلم ؟! بل هو خصيصة من خصائـــص الكلام العربي، وما كان من الألفاظ عديم الإعراب لا يصحّ أن يعدّ من الكلام الفصيح في كل حال .

ويواصل الجرجاني توضيح مذهبه، فيرى أنه لا يجوز لنا أن نعتدّ بأفصح اللغات -في هذا المجال- ولا باستعمال الغريب، ولا باجتناب ما تخطئ فيه العامّة " إن العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علما باللغة، وبأنفس الكلم

المفردة، وبما طريقه طريق الحفظ دون ما يستعان عليه بالنظر، ويوصل إليه بإعمال الفكر "[6]. ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز، وأن يقصد إليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها، لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف[7].

أجل! لم يبق للإعجاز إلا أن يقتصر على النظم والتأليف، فالمفاضلة بين أنواع الكلام، وتمييز المعجز منه مما هو ليس كذلك، لا يتأتى إلا عن طريق الفكر ، وهل يستغني الناظم في نظمه عن الروية والفكر؟! واستقر لدينا أن الألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض ، فيعرف فيما بينها من فوائد[8].

ألا يبهرك الإعجاز إذا فكرت في قوله تعالى ﴿ وقيل : يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، و استوت على الجودي، وقيل : بعدا للقوم الظّالمين [9].

لقد تجلّى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها[10] .

وهكذا ينفرد الجرجاني، فيغدو مجادلا عنيدا، مقتفيا منهج المتكلمين، معتمدا المنطق والعقل، معددا الوجوه الممكنة للإعجاز مفنّدا له ، منتهيا إلى غايته التي سخّرلها كل الأدلّة التي تمكّن منها ليقرر في نهاية المطاف أن الإعجاز يكمن في النظم، ونفى نفيا قاطعا أن يكون فيما يسمّى بمتن اللغة مما طريقه المعجم، ولا فيما طريقه الإعراب الذي يرسم صحّة التركيب في الكلام ،

ولا فيما طريقه النغم والإيقاع، لأن الشعر شريكه في ذلك . وتحصيل ما طرح هنا أن الإعجاز لا يمكن أن يكون فيما هو مشترك بين جميع الناطقين باللغة الواحدة، فما كان بهذه المثابة كانت طريقه الرواية والحفظ وليس الرويّة والفكر الذي يعوّل عليه الجرجاني كثيرا في نظرية النظم التي محور الإعجاز .

ولاريب في أن النظم يحتاج إلى نظر ثاقب، وفكر دقيق، يتم بمقتضاه وضع الألفاظ فـــي مواضعها من التركيب لتؤدي المعاني التي يقصدها المتكلم ، " والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب" [11]. ولا يتأتى ذلك إلا للمتمكن القدير الذي يدرك الفروق بين المعاني، فيقدّر لها وجوهها من النظم، وإن هي إلا معاني النحو وأوضاعه وقوانينه، وهي تتجاوز التركيب المألوف والنمط العادي، وتلك الأوضاع النحوية هي التي تميّز شاعرا من شاعر، ويتفاضل بها كلام على كلام، فليس من فضل ولا مزية إلا بحسب الموضع[12].يقول الجرجاني مؤكدا موقفه : " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيـــغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منـــها، ذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه "[13].

لا يتردد الجرجاني فـــي أن يجـــرّد اللفظ من المعنى، ويسلبه كل مزية، و يمحّضه هيئة تقبل كل وضع تبعا للمعنى ، وتبعيته هذه غير مشروطة، فما وصفنا الألفاظ بالحسن أو الفصاحة بشيء يتعلّق بذواتها-وهي خارج السياق- ولكن بالنظر إليها، وهي مجاورة لأخواتها في التركيب [14]. لأن المزية كل المزية " فيما طريقه الفكر والنظر من غير شبهة، ومحال أن يكون اللفظ له صفة تستنبط بالفكر، ويستعان عليها بالروية "[15] ولعل الجرجاني كان يقف على رأس ثورة عارمة ضد المنتصرين للألفاظ، وقد يكون مأتاها مقولـــة الجاحظ

المشهورة : " و المعاني مطروحة في الطريق "[16]، حيث سوّى بين الخاصة والعامّة، وبين الأجناس البشرية، فجعل المعاني بينهم موطنا مشاعا لا تفاضل فيه، وما كان للجرجاني أن يتجاهلها (أي المقولة) وإنما حاول توجيهها توجيها ملائما على اعتبار أن العلم بالأشياء مركوز في طبائع الناس[17]. وتصويب رأيه أن المعاني عبارة عن المادة الأولية، وتفسيرا لذلك يقارن بين الكلام ومادة الصائغ، فهو يصنع من الذهب أو الفضّة خاتما، ونحن نحكم على الخاتم من ناحية التصوير أو الصوغ، و ليس على المادة التي صنع منها ذهبا أو فضّة. أو ليس هو القائل : " إنما الشعر صياغة وضرب من التصوير "[18].

ولما كان التفاضل في التشكيل وجب الإقرار بمبدأ التفاوت بين صائغين أو بين كلامين، وما يكون التفاضل في سلامة ألفاظهما من الخطاء ، و لا من اللحن، فذاك حدّ أدنى ينبغي أن يحكم التركيب، ولكن الفضل بينهما يكـــون من ناحية أن أحدهما قد استمر على الصواب و لم يستمر الآخر، ولا يكون هذا تفاضـــلا في الإعـــراب، ولكن تركا له في شيء، واستعمالا له في آخر .قال ســـيبويه :"وليس شيء يضطرون إليه إلا وهـــم يحاولون بـــه وجها، وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك هاهو..." [19].

بهذا التصور يعزف الجرجاني عن التفاضل بين أنواع الكلام على أساس السلامة في اللفظ، أو الصحة في التركيب، ويدعو إلى أن يكون التفاضل على أساس الخروج عن الكلام المألوف أو النمط العادي في التركيب ، وهذا هو العدول عن مقتضى الظاهر، وباعتماد معانيه الخفية يتحقق التفاضل بين كلام وكلام، وبات لزاما على الأدب أن يتميّز بالصياغة المتفردة [20] التي هي سنام النظم .

ولـــن يكون النظم فـــي الكلام متميزا إلا إذا كان مبنيا على مبدأ الاختيار، فمن البداهة أن نقول :" إن وجدنا كلاما أفضل من الآخر، وشاعرا

أحسن من شاعر، ذلك أن الاختيار مظهر طبيعي، لأنه يعتمد على قاعدة التفاوت في القصيدة ، أو في شعر الشاعر الواحد أو مجموعة من الشعراء "[21].

والاختيار يحقق للشاعر رغبته في الحرية، ومخاصمة النمط المألوف ويجعله يتميّز بخصائص لا تتأتى لغيره، إنه التفرّد الذي يوصف به واحد من دون أقرانه، "والتفاوت في الصور مهما تقارب شيء لا يكاد يقف عند حدّ ، فإذا بلغ الأثر الأدبي درجة من التميز لا يلحقه فيهـــا أيّ أثر آخر صـــحّ أن يسمـــّى معجزا "[22].

ومـــن دقيق ذلك وخفيه قوله تعالى :﴿ واشتعل الرأس شيبا﴾[23]، فليســـت روعـــة هذا الكلام، ولا جماله بمجرد الاستعارة، "ولكن لأن يسلك بـــالكلام طريق ما يسند الفعل إلى الشيء ، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه ، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده مبينا أن ذلك الإسناد، وتلـــك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتّصـــال والملابسة "[24] ولو قال : اشتعل شيب الرأس أو اشتعل الشيب في الرأس، لما بقيت له تلك المزية، ولذهب جمال النظم فيه ولذهب معنى الشمول الذي قد شاع فيه ، وعمّ جملته حتى لم يبق من السواد شيء، ومثل هذا النظم قوله تعالى : "﴿ وفجّرنا الأرض عيونا ﴾[25] وقولك : اشتعل البيت نارا ، ولو غيّرت الترتيب، وأهملت علاقات النظم فيهما لما بقي المعنى الأول، ولفقد روعته وجماله .

إن الفكرة التي يلحّ عليها الجرجاني إلحاحا شديدا تتعدّى النمط التعبيري المألوف ولا تقف عند حدود صحّة التركيب، ولا يشغلها المعنى الأصلي، إنما هي منفذ لحرية المتكلم في اختيار أدواته التعبيرية، والعدول بها عمّا درج عليه المتكلمون العاديون لخلق طاقات حيّة في التصوير والصياغة والأسلوب، وتلك ميزة الإعجاز، وامتياز الأديب. فإن استطاع المتكلّم أن يتجاوز التشكيل اللغوي

المألوف، أو الذي افترضه النحاة ، كان له أن " يتصرف في التعريف والتنكير والتقديم، والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيضع كلاّ من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة، وعلى ما ينبغي له "[26].

إن القوانين اللغوية – على الرغم من صرامتها – تتيح قدرا من الحرية للمتكلم، ومن هنا كانت للأديب مندوحة في أن يتصرّف في مجال ذلك الفضاء الطليق، كما يجوز له أن يختار الكيفيات المناسبة لكلامه حسب الأغراض التي يؤمّها، والمعاني التي يقصدها فله أن ينتقل بكلامه من شمول إلى تحديد، ومن شيوع إلى تخصيص، ومن إغناء إلى اتغناء، ومن اتساع إلى اختزال، إلى غير ذلك من القضايا اللغوية التي تدور في فلك مستويات "التقدير" باعتماد الزيادة أو إعادة الترتيب...

ويقرّر الجرجاني بعدئذ " أن هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطأه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلاّ وهو معنى من معاني النحو. قد أصيب به موضعه، ووضع في حقّه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحّة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحّة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل ، إلى معانـــي النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل فـــي أصـــل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه "[27].

وهذا الكلام يؤكد أن أهم ركيزة في نظرية النظم هي فكرة التعليق إذ " لا نظم في الكلم و لا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك ،.هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس "[28] والعـــلاقات سياقية هي التـــي تتفاعل مع أوضاع اللّغة ، وتجعل لها حركية مستمرة، وتتمكن من خلق معان غير معهودة بفضل الترابط

العضوي الذي يكون بين الألفاظ بحسب مواضعها الجديدة ، فيفضي إلى التفرّد، ومن ذلك **يتولّد كل جمال فنّي** . ويسرد الجرجاني بعض الأمثلة-تثبيتا لمذهبه- فيدلّل بها على فساد النظم، والخلل في تأليف الكلام، منها بيت الفرزدق : وما مثله في الناس إلاّ مُملّكا * أبو أمه حيّ أبوه يقاربه [29] والحقّ أن هذا البيت بلغ من الذروة منتهاها في التعقيد بسبب الترتيب وبخاصة في الضمائر، ولولا أنّ النقاد كانوا يعرفون المناسبة والممدوح وخاله وأمّه وجده وأباه ما كان يسيرا فهم البيت، ولا حلّ ألغازه . و ممّا جاء على عال من النظم، واتحاد الأجزاء حتى كأنما وُضعت وضعا واحدا قول الفرزدق كذلك :

والشّيبُ ينهضُ في الشّباب كأنّه * ليلٌ يصيحُ بجانبه نهارٌ [30]

وإن أردت أعجب من ذلك في الحسن واللطف وعلوّ الطبقة قول الآخر : سالت عليه شعاب الحيّ حين دعا * أنصاره بوجوه كالدنانير "أراد أنه مطاع في الحيّ، وأنّهم يسرعون إلـــى نصرته، وأنه لا يدعوهم لحرب، أو نازل خطب، إلاّ أتوه وكثروا عليه، وازدحموا حواليه، حتّى تجدهم كالسيول تجيء من هاهنا وهاهنا، وتنصّب من هذا وذاك حتى يغصّ بها الوادي ويطفح منها "[31]. ومـــا لطفها وجمالها إلا بـــما توخي فـــي وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وإن شئت فاعمد إلى تغيير النظم وقل : سالت شعاب الحيّ بوجوه كالدنانيـــر عليه حين دعا أنصاره . وانظر كيف ذهب الحسنـــو الجمال.. [32]

وربّما أراد بالدنانير بياض الوجوه من بشرها وفرحها، وإقبالهم فخورين بما دعوا إليه، وربّما أراد بالدنانير قيمتها في التداول، فكأن الواحد منهم يوازي عشرة، وذاك دليل قوة ." ومما يعلم ببدائه العقول أن الناس إنما يكلّم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده من جهة وجوه التعليق بين الألفاظ، وليس من جهتها ، وهي أوضاع مفردة، لأنه لا يكلمه بألفاظ لا

يعرف هو معانيها، وكذلـك استقر لدينا أن مقاصد الكلام وأغراضه معان، ينشئـها الإنسان فـي نفسه، ويصوغها فـي فكره، ويناجي بـها قلبه ، ويراجع فيها عقله.[33] ولا تتجلّى للسامع إلا من الألفاظ التي بتوخيها النظم تكون مرتبة على الأنحاء التي يوجب ترتيب المعاني في النفس [34]. و قد جعلت الألفاظ زينة للمعاني، وتابعة لها، وكذلك كانت صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ ما عدا أن يكون هناك اتساع ومجاز " ليست المزية التي تجدها لقولك : كأن زيدا الأسد على قولك إنّ زيدا كالأسد شيئا خارجا عن التشبيه الذي هو أصل المعنى، وإنما هو زيادة فيه، وفي حكم الخصوصية في التشكيل كأن يصاغ خاتم على وجه وآخر على غيره، فيفترقان بخاصّة، هذا ما دام النظم واحدا، فإذا ما تغيّر النظم فلا بد حينئذ من أن يتغيّر المعنى[35]. ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وجعلوا للّه شركاء الجن [36].فليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسنا شريفا ومعنى جليلا، محصوله أنه ما كان ينبغي لهم أن يجعلوا لله شركاء من الخلق ولا من الجّن، ويعبدونهم مع الله، وأن اتخاذ الشريك من الجّن ومن غيره قد دخل في الإنكار ، ولو غيّرت النظم، وحوّلت الترتيب هكذا : وجعلوا الجنّ شركاء لله لاحتمل أن يكون القصد بالإنكار إلى الجن خصوصا في أن يكونوا شركاء من دون غيرهم، تعالى الله عن ذلك[37].

وقد بيّن الجرجاني أن للكلام مستويين من الدلالة : مستوى ظاهري نصل إليه بدلالة اللفظ وحده ، ومستوى باطني لا نصل إليه بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض . وهذا الأخير هو الذي أطلق عليه مصطلح " معنى المعنى " . وهو المفهوم الذي يحدده الجرجاني متجاوزا ظاهر العبارة وصولا إلى باطنها باعتماد نمط تركيبي اصطلح عليه النحاة، وهو منتزع من استقراء الكلام العربي ، وشاهده الآية السابقة، فإنهم جعلوا الجنّ شركاء

لله، وعبدوهم، وهذا المعنى يحصل مع التقديم والتأخير، ولكن مع التقديم للفظ الجلالة -كما تتلى- يفيد معنى آخر، وهو إنكار أن يكون لله شريك في العبادة سواء أكان من الجن أم من غيره .

والآن وقد بلغنا من أمرنا نهاية، نعتقد أن شيئا من نظرية النظم قد اتضحت معالمها، وتبيّنت خطوطها العامّة، واستقر في أسماعنا أن للكلام نظما وتأليفا، وكلما تفرّد في الصياغة و لم يشاركه فيها غيره كان معجزا . وهذا ما يسعى إليـــه الناقد ويحاول أن يتبينه باعتماد نظرية النظم التي نادى بها الجرجاني، وأكّد عليها مرارا، ومن هذا المنطلق يمكن أن نحدّد خصائص النص الرفيع الذي ينحو إلى الإعجاز، وسمات الناقد المبدع .

أولا - خصـــائـــص النـــصّ الرفيـــع

يمكن أن نحدد بعضها باعتماد آراء الجرجاني :

1- معانـــي الكـــلام

إن مقاصد الكلام وأغراضه معان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره، وحين يرتّبها في عقله يتزلها ألفاظا مرتبطا بعضها ببعض، بمقتضى المعاني التي أرادها المتكلّم [38]. وربما كان للسامع دور هامّ في أن يصنع منها معاني عدّة.

2- الصياغة المتفـــرّدة .

فإن كانت المعاني مشتركة بين جميع الناس، فإن للأديب حرية صياغتها صياغة متفرّدة . فلست بواجد مزية لإحدى العبارتين على الأخرى حتى يكون لها شيء لا يكون لصاحبتها[39]، فإذا أضفنا الشعر وغيره إلى قائله ، لم تكن إضافتنا له من حيث هو كلم وأوضاع لغة ، ولكن من حيث توخي معاني النحو[40].

3- الاختيـــــــار

التفرد في الصياغة يقتضي أن يكون للأديب اختيار في وضع أدواته بمقتضى طرق النظم المتعددة، فإن عمد إلى ألفاظ، و جعلها تتبع بعضها بعضا من غير أن يراعي مقتضيات النظم، لم يكن صنع شيئا يدّعي به تأليفا[41].

4-أوضـــاع النحـــو

والاختيار يفْضي إلى حدود، وهو أن يصع الأديب كلامه بحسب قوانين النحو وأصوله، ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فالاوضاع النحوية هي التي يتفاضل بها كلام على كلام، فليس من فضل ولا مزية إلا بحسب الموضع[42]

انيـــا – سمـــات الناقـــد نشير إلى بعض السمات فيما يلـــي :

1-الـــذوق والمعرفـــة : يشترط في الذين يتصدون لدراسة النص الأدبي أن يكون لديهم ذوق فني رفيع ومعرفة بالجمال إذ "لا يصادف النص الأدبي موقفا من السامع حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة "[43]. ومن أهل الدربة والممارسة .

2- الصحـــة النحويـــة: ينبغي أن لا يتوقف الناقد عند حدود الصحة النحوية ، ولكن يغوص إلى أعماق التركيب " ونادرا ما تعرّف النقاد على المنابع الشعرية المستترة فـــي البنية الصرفية والتركيبية للغة أو باختصار على شعر النحو ، ومنتوجه الأدبي أي : نحو الشعر "[44]

3- حـــدود النظـــم : لا حدود لوجوه النظم، فليس لها نهاية تقف عندها، ولا قانون يحصرها . بل تأتي على وجوه شتّى وأنحاء مختلفة [45].

4- معنـــى المعنـــى : للمعنى مستويان : ظاهري وباطني، فالأول يفهم من ظاهر اللفظ، وعادة ما يعرف ذلك بحسب الوضع اللغوي، وهو ما يسمّى بأصل المعنى، و لا يأبه الناقد به وإنّما سبيله و ديدنه أن يكشف عن المعنى

الخفيّ الذي يعقل من النظم، ثم يفضي بنا إلى معان أخر[46]. والرأي الختام ينبغي علينا أن ننظر إلى أن للقرآن قوانينه اللغوية التي أحدثها بمقتضى التفاعل الحركي في أوضاع الألفاظ، وتنظيم العلاقات بينها، لخلق معان غير معهودة في اللغة العربية، وهي-مهما كانت-ترتبط بطرق النظم. وكذلك للأديب أن يثور، وأن يتجاوز القوالب اللغويـــة الجاهزة بالقدر الذي تقتضيه المقاصد، وتتطلبه الدلالات، وله أن يبتكر في تصوير المعاني، وأن يتفرّد في الصياغة والأسلوب لينتهي إلى الخصوصية في النسيج اللغوي. كما نقرّ أن للجرجاني فضلا لا ينكر في تأسيس **نظرية النظم**، وقد تعب في وضع مبادئها ورسم قواعدها وتحديد معالمها باحتكامه إلى المنطق وبتعويله على العقل، وكثيرا ما كان يتنقّل في بحار الكلام ليصل إلى دور الإعجاز حتى إذا ما اشتدت عليه أمواج المعاني عاد إلى مرافئ التركيب يحتمي بها، ويستأنس بهدوئها ليجد بعض الإطمئنان من رحلته الشاقّة ومغامراته الخطيرة .

هوامـــش ومراجـــع

[1] – الإمام عبد القاهر الجرجاني (471هـ) ، دلائل الإعجاز ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1981 ، ص 32 .

[2] – م ، ن ، ص 7 .

[3] – أبو هلال الحسن العسكري (395 هـ) ، كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط2 ،1971 ، ص 64 .

[4] – م ، س ، ص 296 ، 297 .

[5] – م ، ن ، ص 77 و302 .

[6] – م ، ن ، ص 303 .

[7] – م ، ن ، ص 299 ، 300 .

[8] –م ، ن ، ص 415 .

[9] –سورة هود ، الآية 44 .

[10] – الدلائل ، ص 36 ، 37 .

[11] – عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، 1977 ، ص 14 .

[12] – م ، س ، ص 69 ، 70 .

[13] – م ، ن ، ص 64 و282 و300 ،301و404 .

[14] – م ، ن ، ص 39 .

[15] – م ، ن ، ص 302 .

[16] – ينقد الجاحظ أبا عمرو الشيباني حين استجاد هذين البيتين :

لا تحسبنّ الموت موت البلى * وإنما الموت سؤال الرّجال كلاهما موت ولكن ذا * أشدّ من ذاك على كل حال ثم قال : وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني ، والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وصحّة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك ، إنما الشعر صياغة وضرب من التصوير" دلائل الإعجاز ، ص 197 ، 198 . ينظر الدكتور إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط02 ، 1978 ، ص 423 . ويقول في هذا الشأن الدكتور مصطفى ناصف : " إنّ النقد العربي لا يعدو أن يكون حاشية متوسعة على عبارة الجاحظ " .نظرية المعنى في النقد العربي ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان ، ص 39 .

[17] – م ، ن ، ص 43 .

[18] – الدلائل ، ص 196 ، 197 ، 198 .

[19] – م ، ن ، ص 306 . يقول جان كوهين : " إن الشعر يمتاز أيضا هنا بانزياح مستمرّ " بنية اللغة الشعرية ، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ،1986 ، ص 176 .

[20] – تاريخ النقد الأدبي ، ص 99 .

[21] – م ، ن ، ص 76 . " الاختيار ناتج على أساس قاعدة التماثل والمشابهة والمغايرة

والترادف والطباق. رومان ياكيسون ، قضايا الشعرية ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر –المغرب– ط1988،1،ص 38 .

[22] – م ، ن ، ص 426 .

[23] – سورة مريم ، الآية 4 .

[24] – م ، س ، ص 65 .

[25] – سورة القمر ، الآية 12. وقال تعالى في سورة يس : ﴿ وفجّرنا فيها من العيون﴾ الآية 34 .

[26] – م ، س ، ص 65 .

[27] – م ، ن ، ص 65 .

[28] – م ، ن ، ص 44 .

[29] – الممدوح هو إبراهيم بن هشام (خال هشام بن عبد الملك بن مروان) أي : ما مثل الممدوح في الناس حي يقاربه في فضائله إلا صاحب ملك " أبو أمه " أي : أم المملك أبوه أي أبو هذا الممدوح. ألا يحتاج هذا البيت إلى ترجمان لشرح معناه ! الدلائل ص65

[30] – م ، ن ، ص 75 .

[31] – م ، ن ، ص 59 .

[32] – م ، ن ، ص 78 .

[33] – م ، ن ، ص 315،408،407." غاية القصيدة التي تمثل فيها كلمات خيط الشمس والغيوم ليست إخبارنا عن أحداث مناخية ، ولكن غايتها أن تعبّر عن عواطف معيّنة يعانيها الشاعر وأن تثير فينا عواطف مماثلة " ، ينظر بنية اللغة الشعرية ص196

[34] – م ، ن ،ص 276 .

[35] – م ، ن ،ص 205 .

[36] – سورة الأنعام ، الآية 100 .

[37] – م ، س ، ص 221، 222 .

[38] – م ، ن ، ص 43 .

[39] – م ، ن ، ص 199 .

[40] – م ، ن ، ص 276 ، 277 .

[41] – م ، ن ، ص 283 .

[42] – م ، ن ، ص 64 ، 65 و70 .

[43] – م ، ن ، ص 225 .

[44] – بنية اللغة الشعرية ، ص 175 .

[45] – م ، س ، ص 74 .

[46] – م ، ن ، ص 202 ، 203 .